مخنّث كلـه ثقوبٌ ومـدمنٌ كله عيوبٌ !

وقال يسبّ كاتباً من أكبر كتاب مصر :

أخسّ من دبٍّ على ظهرها ودبت الناسُ على ظهرهِ !

وقال يهجوني في عقر بيتي ويمدح خادمي أحمد :

اذا جئتهم طالبا لقمةً رأيتَ مظاهرةً قادمهْ !

ألا بارك الله في أحمدٍ ولعنة الله على الخادمهْ !

ثم سأل ما اسم هذه الفتاة ؟ قالوا فاطمه، قال حسن ! فليكن البيت هكذا :

ألا بارك الله في أحمدٍ ولعنة الله على فاطمهْ !

وهكذا كنا نتمتع بحديثه الشهي ونقضي معه أياماً لن تعود غفرله الله ، وطيب ثراه ، وجعل الجنة مثواه ؟

ابراهيم رمزي أباظه

حافظ الرجل وحافظ الشاعر

قال كارليل الفيلسوف الانجليزي العظيم في كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال): الرجل العظيم لا يزال المنقذ الوحيد لعصره من مهاوي الفناء والعدم ، وهو الشعلة الأولى التي تمتد إلى سائر المواد فتشعلها .

والاخلاص العميق البالغ البعيد المدى الكريم في أصله هو أول خواص الرجل العظيم سواء أكان إلهاً أم نبياً أم شاعرا أم كاتبا أم ملكاً ، ونحن نسمي هذا الرجل رسولا . فهو رسول أرسل الينا من العالم المجهول الغير المحدود برسالته . فلنا أن نسميه شاعراً أو نبياً أو الهاً إذ ليس هناك فرق كبير بين النبي والشاعر ، فهما في الاصل واحد .فكلمة Vates في اللاتينية معناها « نبي » ومعناها « شاعر ». وكل مافي الامر ان النبي قد تناول ذلك السرّ الالهي من الجانب الأخلاقي كالخير والشر والمحظور والمباح ، والشاعر قد تناوله من جانب الجمال . فالأول يوصي الينا بما يجب عمله ، والثاني يكشف لنا عن مواضع حبنا وسرورنا ، ولكنهما في حقيقتهما كمجريين متداخلين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

هذا مجمل ما قاله هذا الفيلسوف عن العظيم والشاعر ، وهذا ما أراه جديراً بان أصف به حافظ ابراهيم الرجل العظيم والشاعر الفذ كما وصفتُ به من قبل لورد بيرون الشاعر الانجليزى العظيم .

أما حافظ الرجل وحافظ الشاعر فقد يتعذر علينا ان نفصل أحدهما عن الآخر ، وهذا شأن كل رجل عظيم فقد تضفى شخصيته العظيمة بألوانها الزاهية على كل شيء حوله وتصبغ شعره بصبغتها الخاصة وتطبعه بطابعها المعين . فلا نستطيع رؤية احدهما جيداً عن الآخر ، بل لا يمكننا فهم احدهما إلا إذا فهمنا الآخر . ولكنى ارى ان شخصية حافظ الرجل هى شخصية حافظ الشاعر ، ولا ألقى هذا الكلام على عواهنه ، ولكنى أقوله وأنا واثق منه كل الثقة ، متثبت منه تمام التثبت ، معتمداً على ما أعرفه عن الرجل نفسه وما انطوت عليه نفسه العالية من نبل وسمو وفضائل .

لحافظ أكثر شعرائنا الحديثين اتصالا بنهضتنا : فقد عمل على اذكائها بقلبه وبيانه وبروحه وماله ، لم يتطرق اليه اليأس ولم يشك أو يتململ شأن الرجل الضعيف ، بل ثبت فى ميدان الجهاد ثبوت الأبطال البواسل يذود عن وطنه الذى أحبه وتفانى فى حبه ، والذى من أجله عاش وفى سبيله مات بعد أن بعث فينا روح الأمل وضرب لنا مثلاً صالحاً للجهاد الوطنى .

لم يكن حافظ مريض الاعصاب أو ضعيف الارادة فيثور ويهيج ، بل كان قوى العود صلب القناة عظيم الصبر كثير الاناة فاستقل حمله الفادح فى ثبات وصمت وواصل جهاده المضنى الطويل بين عواصف عاتية لم تقو على زحزحته أو الرجوع به الى الوراء ، ووسط بحار هائجة لم يتهيبها أو يفرق منها بل اندفع فيها وسار حتى أدى رسالته كاملة وبلغها إلى بنى وطنه وفصلها لهم تفصيلا !

لم يعرف حافظ الانانية egoism قط — والانانية شر عيوب الرجل — بل كان فى كل حياته حلوها ومرها كريم الخلق رضى النفس حلو الحديث يستهوى السامع ويأسره ويسر الناظر فلا يود أن يتركه ، ولكنه كان بجانب ذلك عظيماً مهيباً محبوباً : فهو عظيم فى بساطته كما أنه بسيط فى عظمته ، وربما كانت هذه ميزة تفرّد بها حافظ بين شعرائنا المصريين ، فنجد فى جانبه أنساً وفى الاستماع إليه متعة ولذة .

أما عيوبه فلا إخال أحداً يعرف عيبا لحافظ إلا اسرافه الكثير — إن كان هذا الاسراف عيباً — ومهما كانت عيوبه فان حياته وما أتى عليها من صروف وما تلونت به من ألوان البؤس والفاقة ، ونفسه وما انطوت عليه من نبل وطهارة ، وطبيعته وما امتزجت به من عناصر الطيبة والوداعة ، زعيمة بمحوها وكفيلة باظهار حافظ فى أحسن صورة وفى أبهى منظر .

لقد كانت فى حافظ قوة غريبة تدفعه إلى حب الآخرين وتستهوى الآخرين الى حبه حتى يمكننا — بدون اعتساف فى القول — أن نعد حافظاً أحب الشعراء الينا ، لأننا اذا أحببنا حافظاً فاننا نقوّى حبنا للطيبة والوداعة ونزيد ثقتنا فى صفاء الطبيعة الانسانية وطهرها ، زد على ذلك أننا نحب حافظ لحب شعره معه ، وشعره جزء من نفسه أو هو نفسه .

شعره

وما شعر حافظ الا روحه تقمصت روح النهضة وبرزت للعيون فى أبدع قوالب الشعر وأعجب صوره ، فلم يصدر شعره عن ملكة خاصة فيه بل كان نتيجة حتمية عامة لذهن طبيعى جبار ، ومزاج قوى حاد . أفصح عن نفسه بهذه الطريقة الشعرية الرائعة ، لذلك جاء شعره صادقاً كل الصدق معبراً أفصح التعبير عن ذلك المزاج الحساس وتلك النفس المتألمة لوطنها الذليل ، فلم يكن أوهاماً ولا تخيلات بل كان شيئاً شعر به صاحبه وجاش فى خاطره فألهب وجد انه فأفرغه فى ذلك القالب الشعرى الخلاب.

فالصدق والاخلاص وحب الحق هى الصفات التى تميز حافظاً عن معظم الشعراء المعاصرين وهى التى صبغت شعره بصبغة ثابتة لن تزول ، وطبعته بطابع الخلود . فوفاته إذن مأساة الاخلاص .

ويظهر لى من أشعاره ان الرجل كان له عقل قوى ، وأعصاب سليمة ، وله قلب انسان يخفق بين جوانب صدره ، وانك لتسمع خفقاته فى كل اشعاره ، وانه لم يكن مريض الشعور أو ضعيف الحس ، بل كانت له عين ترى ، وقلب يشعر ، ولسان يفصح .

انظر إليه يذكر بلاده وينعى على مواطنيه التفكك وضعف الاخلاق والاسراف فى اللهو واللعب فى قصيدته « غادة اليابان » :

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلاً ما بتُّ أشكو الشُّوَبا
أمةٌ قد فتَّ فى ساعدها بُغضُها الأهلَ وحبُّ الغربا
تعشق الألقابَ فى غير العلا وتفدِّى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القومُ بها أم بها صرفُ الليالى لعبا !

• • •

وانك لتجد معظم شعره قد وقفه على الافصاح عن أمانى بلاده ، وإنك لتحسّ وأنت تقرأ هذا الشعر بأنات الشاعر المتواصلة وزفراته المتصاعدة حزناً على وطنه المعذب . فشعره قد صيغ من هذه الآلام ، وزفراته قد امتزجت بأنين الشعب كثيراً . وقضى ربك ان يجعل العهد الذى عاش فيه حافظ عهد آلام وجهاد ونصب وجلاد وحرب سجال بين العدو المغتصب والشعب الوادع المطمئن . إنك تحس وأنت تقرأ شعره عن حادثة دنشواى المشئومة بأنفاس الشاعر الملتهبة وهى تتحرق وجداً على قتل الابرياء ودموعه تهمى على خديه بكاء على بنى وطنه المعذبين وهو يتساءل فى حسرة وأسى عن سبب ذلك التعذيب الشنيع الذى يصوّره فى صورة تستفز الشعور وتثير جوامد النفوس وتستدر العبرات من هول المصاب وفداحة الخطب إذ يقول :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتمُ أم كيدا !
احسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أنفوساً أصبتمو ام جمادا !
ليت شعرى أتلك محكمة التف تيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟!

ويقول أيضاً فى موضع آخر مخاطباً العميد البريطانى :

جلدوا ولو منّيتهم لتعلقوا بحبال من شُنقوا ولم يتهيبُوا
شُنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا بلظى سياط الجالدين ورحّبُوا
يتحاسدون على المنات وكأسه بين الشفاه وطعمه لا يعذبُ !

ثم تراه وهو يبثّ روح الثورة فى نفوس الشبان ويحفزهم إلى المطالبة بحقوقهم

ويذكرهم بمجدهم التالد وتاريخهم المجيد حين يقول :

عارٌ على ابن النيل سبّاق الورى مهما تقلب دهرُه أن يُسبقَا
فتدفقوا حُججاً وصونوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدفّقَا
ومن البلية أن تباع وتشترى مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقَا !

وكذلك يقول :

رجالَ الغد المأمول ان بلادكم تناشدكم بالله أن تتذكّروا
فكونوا رجالاً عاملين أعزةً وصونوا حمى أوطانكم تتحرّروا

* * *

واذا كانت حياة حافظ قطعة من قلب الطبيعة الخالدة فان شعره قيثارة تلك الطبيعة الحزينة الباكية تشدو بآلام وطنه وأشجانه وتتغنى بمجد مصروعزها الغابر فتبعث فى النفوس همةً وتوقظ فيها حلوَ الأمانى .

وقد وهبه الله قوة وبراعة فائقتين فى تصوير الاشياء تصويراً رائعاً ، فلم يكن ينظر اليها من هذا الجانب أو من ذاك ، بل كان ينفذ الى لبها وصميمها وينظر اليها بعين نافذة شاملة فسرعان ما تذوب تلك الأشياء وتتحلل أمامه وتتكشف له دفائن أسرارها ، فيعمل فيها ريشته العجيبة ويصورها أبدع تصوير ... فما أبدع تلك الأبيات التى قالها فى وصف زلزال صقلية ، فقد تعد هذه القصيدة من غرر الشعر سواء العربى أم الغربى ، فقد كان حافظ فى هذه القصيدة صادقاً كل الصدق ، دقيقاً فى تصويره كل الدقة ،شاملا في وصفه كل الشمول ، أضف إلى ذلك جمال الالفاظ وجزالتها ، وإحكام سبك المعانى الذى لا يتسنى لكثير من الشعراء ، إذ يقول :

أين رجيو وأين ما كان فيها من مغانٍ مأهولةٍ وغوانى؟
عوجلت مثل أختها ودهاها ما دهاها من ذلك الثوران
رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ض ينادى : أمى ! أبى ! أدركانى !
وفتاة هيفاء تُشوَى على الجم ر تعانى من حرّه ما تعانى
وأب ذاهل الى النار يمشى مستميتاً تمتدّ منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه مسرعَ الخطو مستطير الجنان

تأكل النار منه لا هو ناجٍ ... من لظاها ولا اللظى عنه وانى
غصت الأرض ، أتخم البحر مما ... طوياه من هذه الابدان
وشكا الحوتُ للنسورُ شكاة ... رددتها النسورُ للحيتان
أسرفا فى اللحوم نقراً ونهشاً ... ثم باتا من كظة يشكوان
لا رعى الله ساكنَ القم الشمّ ... ولا حاطَ ساكنَ القيعان!

الرثاء

وإن كان الصدق لازماً للشاعر والشعر فى جميع فنونه فانه أشدّ لزوماً فى الرثاء بنوع خاص . وإذا عرفنا أن الصدق فى حافظ كان عنصراً من عناصر طبيعته فلا غرابة إن جاءت مراثيه كلها آيات رائعات ودرراً غوالى تسمو بصاحبها إلى مستوى شعراء المراثى العالميين . وان الذى يقرأ مرثيته المشهورة فى صديقه الامام الشيخ محمد عبده يتبين صدق ما أقول ويشعر بلوعة الصديق الذى فقد صديقه الوفىّ الأمين :

سلامٌ على الاسلام بعد محمد ... سلامٌ على أيامه النضرات
على الدين والدنيا ، على العلم والحجى ... على البر والتقوى ، على الحسنات
لقد كنتُ أخشى عادىَ الموت قبله ... فأصبحتُ أخشى أن تطول حياتى
فوالهفى والقبرُ بينى وبينه ... على نظرة من تلكم النظرات!

كذلك شأنه فى رثائه لصديقه قاسم أمين ولمصطفى كامل ، فى هذه القصائد روعة وجلالة وتصوير قوى ساحر يأخذ بلب القارىء أو السامع ويستهوى حسه وخياله .

وصفوة القول ان شاعرية حافظ كانت مزاجاً من الابتكار والتقليد : فقد قرأ حافظ أشعار ابن الرومى، وتأثر كثيراً بشعر بشار بن برد ومسلم بن الوليد ، وحفظ كثيراً من أشعار البحترى وأبى تمام والمتنبى والمعرى ، فجاءت دراسته هذه لاشعار العرب القدامى بثروة عظيمة له لا يشك فى قيمتها . أضف إلى ذلك دراسته للأدب الفرنسى وما فى الأدب الفرنسى من جمال وحسن ورواء ظهر أثره فى

شعره ، لا فى روح التعبير وحده بل تعداه إلى المعانى .

* * *

مسكين حافظ ! ما أتعس أيامك التى قضيتها وما أشقاها ! إن كنتَ لاقيتَ منا جحوداً فى حياتك فلن تعدم منا وفاء بعد مماتك . ان اسمك سيظل مذكوراً بعد أن كتب فى ثبت الخالدين . فلتنم ولتقر عيناً بين صحبك الابرار ، فان معبد شهرتك الخالدة يطل اليوم على قبرك .

وما شهرتك إلا روحك التى ستعيش بعدك فى قلوبنا ؟

نظمى خليل

حافظ

فنانٌ كما يجب

الجمال فى الحياة كثير : جمال الطبيعة ، وجمال اللذة ، وجمال الألم . والحياة فى غموضها وابهامها مظهر من مظاهر الجمال الرائع فى الوجود ، والانسان — مذ كان — مدفوعٌ إلى تصوير هذا الجمال بوحيٍ روحىّ من احساسه فى أسلوب يشفّ عن مبلغ هذا الاحساس ونوعه .

فكان الموسيقىُّ والشاعرُ المصوّرُ ومن الى هؤلاء الذين صفت عقولهم حتى صارت قلوباً .

وهؤلاء رسلُ الجمال فى الحياة ، وكما اختلفت رسالاتهم فى الفن قد تلونت أساليبهم بلون الشعور الذى حفزهم إلى الرمز والتعبير .

فنرى مصوراً مثلا قد ملكه جمالُ الطبيعة فقام يدعو لعبادة هذه الآلهة فى بلاغة من الصمت الناطق ، ثم نرى مصوراً آخر قد حيرته معانى الحياة ودفائن الوجود فسجد لجبروت هذا السر الرهيب ثم انبرى يصوّر هذه المعانى ويكشف عن تلك الدفائن بريشة العاطفة ومشعل الخيال .

وهكذا كان الشاعر ، وهكذا يجب أن يكون : يجب أن يقف كل شاعر فى محراب من محاريب الحياة يسبّح لالهة واحد من آلهة الجمال ، ويهتف بما يوحى اليه